الاحلام وتعليلها العلمي

لسنا نحاول في هذا المقال ان نضع قواعد لتفسير الاحلام و بيان دلالتها لان ذلك عمل يهتم بهِ في الغالب اصحاب التحليل النفسي Psycho-analysis بل سنحاول تعليل نشأتها واثر العوامل المختلفة في تكوينها و بيان مراكز الدماغ المرتبطة بها تلخيصاً من مقالة للاستاذ فرايزر هرس في مجلة العلم الحديث

النوم هو انقطاع الدماغ عن العمل انقطاعاً مؤقتاً ، والدماغ هو ذلك القسم من الجهاز العصبي الذي فيهِ الوجدان والادراك . فاذا كان النوم خالياً من الاحلام خلوّاً تامّاً فسبب ذلك ان الدماغ اي المراكز الدماغية المختلفة في حالة سكون تام . ولما كانت هذه المراكز هي التي تدوّن اثار ما نحسّ بهِ بحواسنا وما نشعر بهِ فكان واجباً ان يكون النوم التام خالياً من كل وجدان او ادراك لما يحيط بنا من الاشياء او لاحوال الجسم نفسهِ

والحلم هو يقظة الوجدان من سكونهِ من غير ان يستيقظ النائم. فمركز البصر في الدماغ يكون ساعة السبات منقطعاً عن العمل فلا نرى شيئاً وليس سبب ذلك اغماض عيوننا بل هو انقطاع مركز الدماغ الذي يدوّن صور المرئيات و يدركها عن العمل. الست ترى ان رجلاً اصيب بشلل في مركز البصر او بنيبوبة لا يستطيع ان يرى الاشياء ولو كانت عيناهُ مفتوحتين ؟

فالحلم الذي تتألف اجزاؤهُ من امور رآها الحالم في يقظتهِ وهو ما يُعرّف « بالحلم البصري » سببهُ تنبّه جانب من مركز البصر في الدماغ بعض التنبه حين تبقى سائر اجزاء المركز في راحة وسكون . وما يصدق على مركز البصر يصدق على مراكز الحواس الاخرى ، السمع والذوق والشم واللمس وغيرها . والاحلام تختلف انواعها باختلاف المركز الذي يتنبه بعض التنبه . فمن الاحلام ما يتألف من امور تلمس او تسمع او تشم او تذاق ومنها ما يتألف من جميع هذه العناصر معاً او من بعضها كما سيجيء . واندر الاحلام ما تألف من امور تذاق او تشم

واذا تنبه مركزان من مراكز الحواس معاً كمركزي النظر والسمع تألف الحلم من اشياء ترى وتسمع في آن واحد كما لو حلم احد انهُ رأى جرساً وسمع صوتهُ . وقد ذكر بعضهم انهُ رأى في حلمهِ جرس كنيسة يتحرك حركة شديدة ولكنهُ لم يسمع صوتهُ. وذلك

لان مركز السمع في دماغه كان حينئذٍ في سبات عميق ومركز النظر متنبهاً

وقد اطلقت كلمة «رؤية والجمع رؤى» على الاحلام لان اكثر الاحلام «احلام بصرية» اي تتألف في الغالب من امور رآها صاحب الحلم في اليقظة فكأن هذه التسمية من قبيل تسمية الكل باسم البعض وهذا دليل على ما لحاسة النظر من الشأن الكبير في امورنا اليومية

يتضح مما تقدم ان الذين يولدون عمياً لا يستطيعون ان يحلموا احلاماً تتألف من مرئيات ولذلك نجد في درس احلامهم وتحليلها طلاوة خاصة اذ تبقى احلامهم على الحواس الاخرى اذا كانت سليمة فيحلمون انهم سمعوا لحناً رخيماً او لمسوا جسماً بارداً او ذاقوا شيئاً حلواً ولا يحلمون انهم رأوا جسماً يُعرَض مثلاً. واكثر احلامهم تتألف من امور تسمع. فقد ذكر بعضهم ان فتى حلم حلماً عن الاسكندر ذي القرنين بعد ما سمع في نومه صوت انطلاق مدفع لم يرَ بريقهُ. وقيل ان آخر تصوّر ان يوم الدينونة هو رفع الناس بحبال الى السماء ونفخ الابواق وغناء المغنين. وحلم آخر ان شخصاً توفي لما لمس جثتهُ الباردة من غير ان يراها

حسبنا فيما تقدم ان الحلم صورة محوّلة من صور الذاكرة وهذا في الغالب حسبان صحيح. على ان علماء النفس يحسبون الاحلام ضرباً من الوهم وهو الشعور بوجود صورة في العقل من غير باعث خارجي يبعث على وجودها. والناس في الاوهام سواء منهم العاقل والمجنون فللمجنون اوهام وللعاقل اوهام سواء كان نائماً او صاحياً

فالعاقل اذا توهم امراً لا يلبث ان يصححهُ بما عرفهُ قبلاً فلا يبقى هذا الوهم مسلطاً عليهِ. اما المجنون فلا يستطيع شيئاً من هذا فيما يتصورهُ او يتوهمهُ لانهُ لا يقدر ان يفرق بين الصور التي تقوم في عقلهِ والحقائق كما هي. فهو يحسب كلَّ ما يتصورهُ حقيقة ولذلك فهو مخدوع دائماً اذ ليس لديهِ مقياس يختبر بهِ صحة اوهامهِ او خطأها. كذلك العقلاء حين يحلمون لا يجدون لديهم مقياساً يقيسون بهِ حقيقة ما يشاهدونهُ في احلامهم فيتصورون ان هذه الصور حقيقية

وقليل منا من يدرك الى اي حدٍّ يفقد النائم قوة الادراك والحكم حينما يستولي عليهِ سبات عميق. فالنائم مهما كان عالماً كبيراً يتصوّر من الافعال في حلمهِ ما لا تدور مخيلتهُ في خلد طفل صغير. يتصوّر انهُ دار حول الكرة في لمحة بصر وحلّق فوق الغيوم من غير

طيارة ومدّ يدهُ من بناية الى اخرى بفصل بينهما شارع عريض . وقد يشعر ان جسمهُ تقلّص حتى تسعهُ بذرة او تضخم حتى صار من جبابرة العصور البائدة — يرى كلّ ذلك من غير ان يدرك استحالة ما يرى لان قوة الادراك والحكم فيهِ تضعف الى حدّ بعيد

على ان ما تقدم لا ينفي امكان التفكير تفكيراً منتظماً حين النوم . فقد قيل ان من العلماء والشعراء من حلّ معضلات رياضية دقيقة او نظم اشعاراً بليغة وهم نائمون . ولكن هذا العمل اقرب الى الجنوان منهُ الى الاحلام . ففي الجنوان يكون الدماغ متنبهاً يتم عملهُ من غير ان يتأثر بما تنقلهُ اليهِ الحواس من المؤثرات الخارجية

عرفنا ان سبب الاحلام تنبه جانب من احد مراكز الدماغ بعض التنبه . فكيف يتفق ان مركزاً من مراكز الدماغ يتنبهُ بعض التنبه بعد ما يكون ساكناً كل السكون . وما هو مصدر المؤثرات العصبية التي تنبهُ الوجدان

حينما يكون الانسان في حالة اليقظة تتلقى مراكز الدماغ المختلفة الرسائل العصبية من مختلف اعضاء الحسّ فيتلقى مركز النظر رسائل العينين ومركز السمع رسائل الاذنين وهلمّ جرًّا . وقد ترد على احد المراكز رسالة عصبية من مركز مجاور لهُ تنبههُ كما يتصل المجرى الكهربائي بسلك من سلك قريب منهُ او ملامس لهُ . وذلك ما يحدث حين تسمع نباح كلب فتتمثل صورتهُ في ذهنك . وهنالك مصدر ثالث للرسائل العصبية التي تنبهُ مراكز الدماغ المختلفة عدا اعضاء الحسّ الخاصة والمراكز المجاورة لها وهي رسائل عصبية تنشأ في الجلد او في بعض الاعضاء الداخلية

من الواضح ان مركز النظر في الدماغ لا يتلقى رسائل عصبية من العينين في اثناء النوم ومركز السمع لا يتلقى رسائل عصبية من الاذنين والاّ لكان صاحبهما في حالة اليقظة . كذلك لا يحتمل ان يتلقى مركز النظر مثلاً رسائل من مراكز الحواس الاخرى لانها كلها في حالة راحة تامة او سبات . فالرسائل العصبية التي تتصل بالمركز البصري في الدماغ في اثناء النوم هي من النوع الثالث في الغالب ومنشؤها في الجلد والاعضاء الداخلية كالرئتين والقلب والمعدة والامعاء وغيرها

ولا بدّ من الاشارة هنا الى انهُ يتعذر على النائم ان يسد اذنيهِ كما يطبق عينيهِ ولذلك لا بدّ من ان يتصل بمركز السمع في الدماغ بعض الرسائل العصبية التي تجيء عن طريق الاذنين ومن مراكز السمع « تطفر » وتتصل بمركز البصر فينشأ عنها حلم من الاحلام كما

حدث لرجل نائم حين حاول آخر ان يوقظهُ باحداث صوت عالٍ قربهُ فكان ذلك الصوت سبب حلم حملهُ عن ضرب الاسكندرية

ولكن معظم الاحلام ينشأ عن الرسائل العصبية التي تنشأ في الجلد والاعضاء الداخلية فقد ذكر احد الباحثين ان طبيباً يدعى الدكتور غرغوري وضع في سريرهِ زجاجة ماء عالٍ فحلم انهُ ماشٍ على الحمم السائلة على جوانب بركان اتنا بصقلية. فمركز البصر في دماغهِ تنبَّه برسائل عصبية تنقل اليهِ من رجليهِ حينما احسَّ بحنونة زجاجة الماء . ولا شك في ان مراكز بعض الحواس الاخرى ساعدت على تكوين الحلم على هذا الشكل . كذلك متى وقعت اغطية السرير في الليل فقد يحلم النائم انهُ في القطب الشمالي يعاني الزمهرير واذا زادت حرارة الغرفة في اثناء نومهِ فقد يحلم انهُ انتقل الى المنطقة الاستوائية الحارة

واذا كان احد معصاباً بألم ما كمغص في الامعاء او بسوء الهضم او الازما او مرض القلب او تصلب الشرايين فقد تكون هذه الامراض سبباً لاحلام واضحة في صورها مزعجة في تأثيرها . وليس من الخطإ ان نقول بان معظم الاحلام المزعجة التي تعرف بالكابوس سببها حالة الاعضاء الداخلية فاذا وجد دم مسموم في مركز من مراكز الدماغ كان وجودهُ باعثاً على نشوء احلام واضحة الصور غير مرتبطة الاجزاء حتى يطلق عليها اسم «هذيان» والهذيان يتناول اكثر مراكز الحس في الدماغ ولا يقتصر على مركز البصر وسببهُ في الغالب وجود سموم الحميات في الدماغ تدور مع الدم المسموم . وهنالك ادوية ومخدرات عديدة تسبب هذياناً مثل سموم الحميات كالمشروبات الالكحولية والافيون والحشيش وغيرهما وذلك لانها تهيج خلايا الدماغ

واذا كان الحلم واضحاً غير مرتبط الاجزاء فقد تنفصل منهُ افعال عصبية تحرك اعضاء النطق فيتكلم النائم في نومهِ او تحرك اعضاء المشي فينهض من سريرهِ ويمشي وهو ما يعرف بجولان النائم وحيث ان النائم لا مقدرة لهُ على التفكير الصحيح فقد يتعرض لمخاطر جمة حين جولانهِ نائماً

وقد تتصل الرسائل العصبية احياناً بالغدد بدلاً من ان تتصل باعضاء النطق او الحركة فتفرز الغدد مفرزاتها وذلك هو سبب بكاء الاطفال وتصبب العرق احياناً في اثناء النوم